كان لهم جانب مشرق يتمثل في مساهمتهم في البناء الحضاري والثقافي فقد قاموا باعمال جليلة لخدمة العلماء ورجال الدين وعوضوا امارتهم عما اصابها في الحروب بأن انفقوا اموالاً كثيرة في بناء المدارس والمساجد والانفاق عليها واصلاح ما أصابها ، فضلاً عن ان بعضهم اوقف على المدارس ، والمساجد كثيراً من الاراضي والضياع من ممتلكاته الخاصة للانفاق على تلك المدارس وعلى الاسر الدينية) ثم يضيف (وبالرغم من الجهود التي بذلها بعض الامراء البابانيين في الحفاظ على استمرار حكم اسرتهم الا ان علامات تدهور هذه الاسرة كانت تسير متوازية مع حكمها فصراع الامراء على تولى منصب الامارة ، قد انهك قواها وجعلها عاجزة عن الدفاع عن نفسها في الوقت الذي كانت فيه الامارة السورانية تنمو وتتسع وتحاول فرض سيطرتها على كردستان) .

والخلاصة . . ان رسالة الاستاذ عبد ربه الواثلي عن الامارة البابانية علامة مضيئة في حقل الدراسات الكردية رغم بعض الهفات الثانوية التي اعترضت بعض مواضيعها ، فقد اخفق الكاتب في موضوع أصل الاكراد ص ١٦ – ١٧ ، وكانت مصادره فقيرة في ذلك ، وان كان هذا الوضوع يعد ركناً ثانوياً من اركان رسالته ، كما انه لم يفلح في تغطية التنظيمات العشائرية الكردية ، والتي فصلها الاستاذ فردريك بارث في كتابه (اسس التنظيمات الاجتماعية في كردستان الجنوبية) وهو أحد المصادر التي اعتمدها في بحثه مما يدل على أنه لم يطلع اطلاعاً كافياً ودقيقاً على هذا المصدر .

مع ذلك فقد كان الاستاذ عبد ربه من خلال سطور رسالته باحثاً اميناً ، وكاتباً صادقاً ، سلط من خلالها الاضواء على مختلف جوانب الحياة في الامارة البابانية ، فجاءت الدراسة متكاملة شاملة انارت زاوية من زوايا التاريخ الكردي الحديث .

من ذكريات عن الحرب

بقلم : صبري بوتاني

مقدمة :

على الرغم من صدور عدد من الكتب والدراسات لمؤلفيها الأكراد وغير الأكراد وبلغات شتى عن دور الشعب الكردي ووضعه في الحرب العالمية الأولى ، وفي مقدمة تلك الكتب ، المؤلف القيم لمؤرخنا الفاضل الدكتور كمال مظهر أحمد والموسوم بـ (كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى) . على الرغم من ذلك فأن موقع الشعب الكردي ودور المحاربين الأكراد في تلك الحرب الرهيبة وكذلك موقع كردستان فيها ، لم يشبع الى الآن تعليقاً وبحثاً وتدويناً يضاهي في الختام الدور والموقع الحساس للشعب الكردي في تلك الحرب ، لاسيما أذا علمنا أن معظم الأكراد وقتذاك ، كانوا يعيشون في إطار الدولة العثمانية وأن الأكثرية الساحقة من الملايين الكردية كانت ولا تزال تعيش في كردستان تركيا ، تركيا موطن ومركز الدولة العثمانية البائدة . وإذا علمنا أن الدولة العثمانية كانت تشكل طرفاً من الأطراف الرئيسة في الحرب العالمية الأولى . وأن تلك الحرب لم تنشب إلاّ لكي تقتسم الأطراف الأستعمارية الأخرى المشاركة في الحرب ممتلكات هذه الدولة التي كانت تسمى بالرجل المريض ، لأدركنا أنذاك خطورة وأهمية دور وموقع الكرد وكردستان في أحداث تلك الحرب . وما الأهمية الكبيرة التي أولتها كل من روسيا القيصرية

المحاربين الاكراد العالمية الاولى

تقديم وترجمة : عبدالغني علي يحيى

وبريطانيا العظمى وألمانيا إضافة الى الدولة العثمانية بالأكراد وكردستان إلاّ دليلاً على صدق ما ذكرناه . ومع كل هذا فأن التركيز على تلك الأهمية من لدن الكتاب والباحثين لا زال دون المستوى المطلوب . فأدب المذكرات والسير والروايات الكردية منها بالأخص عن الكرد في تلك الحرب ، قليل ونادر ويكاد أن ينعدم تماماً . وبأعتراف المؤرخين والعلماء فأن ما يحمله وما يتضمنه هذا الأدب من صدق وحقائق ووقائع دامغة ، يفوق ما تحتويه من الأداب الأخرى كالسياسة والتأريخ مثلاً ، ونتيجة للوعي الرفيع لأنباء الأمم المتقدمة بدور أدب المذكرات والسير واليوميات ، فأن هذا الأدب مقروء بكثرة لدى أبناء تلك الأمم ، ويتلهف القراء بشوق الى قراءته ، بل أنه يحتل الصدارة من حيث الأقتناء والتداول بالمقارنة مع الألوان الادبية الأخرى .

من هذه الزاوية يكتسب المقال الذي نشره الأستاذ «صبري بوتاني» في العدد : ٤ الدورة : ٣ من مجلة «الكاتب الكردي» والصادر في مايس من هذا العام عام ١٩٨٦ أهميته . وأن القارئ ليحتار حقاً في درج الموضوع ضمن لون أدبي معين ، لأنه يجمع بين المذكرات واليوميات أو السيرة الذاتية من جهة وبين السياسة والتأريخ من جهة ثانية وبين القصة والرواية من جهة ثالثة . وثمة عنصر أخر فيه يأتي بمثابة قاسم مشترك لجميع الفنون التي ذكرناها ألا وهو عنصر التشويق والترغيب ولذة المتابعة . دع القول عن أهميته من حيث غناه بالامثال الكردية النادرة ومن حيث لغته الكردية السليمة الأصلية ومفرداته التي تزيد وتغني من ثروتنا اللغوية . وتراني هنا أميل الى القول بدرج الموضوع ضمن أدب المذكرات والسير بالرغم من أن الأحداث الواردة فيه تعين المرء على تحديد الكثير من المسائل التأريخية والسياسية والعسكرية . . الخ في ذلك الزمن ، زمن الحرب العالمية الأولى .

أن موضوع (من ذكريات المحاربين الاكراد عن الحرب العالمية الأولى) . والذي يحمل في الأصل عنواناً اخراً ومغايراً وهو من نتائج أو حصيلة الحرب العظمى والذي غيرناه الى عنوان أخر يعبر في رأينا ، مع الأعتذار للكاتب ، عن مضمون الموضوع بشكل أدق .

أن هذا الموضوع يحمل في سطوره الى القراء والباحثين جملة من الأمور والدلالات ، فهو أي الموضوع ، إدانه للحروب كونها كارثة تلحق بالأنسانية الآلام والمآسي . وهو عرض وتسليط للأضواء على فترة مظلمة من تأريخ الأكراد . فيرينا كيف أن الأكراد كانوا وقوداً لحرب ظالمة زجوا فيها خلافاً لأرادتهم ومصلحتهم . وهو أبراز للروح المعنوية العالية التي يتحلى بها المحارب الكردي وكيف أنه يحتفظ برباطة جأشه ومرحه حتى في أحلك الأوقات . كما ويدل محتوى الموضوع على ذكاء هذا المحارب وخبرته في الشؤون العسكرية ، أنظر الى تشكي أحد الشخوص في الموضوع من زجه في الهجوم ببطن جائع هنا يحضر المرء قول نابليون بونابارت : الجندي يحارب بمعدته .

وأخيراً ، بمقدورنا القول ، أنه كان بوسع الكاتب أن يقدم الى القراء رواية جيدة خصوصاً وأنه تمكن أن يصور أجواءً روائية ويقدم الشخوص الرئيسة مثل : «حكمت أفندي» والـ «خوجه» و «جبوك ذو الرأس الكبير» وقد حملها مقومات شخوص الروايات لما تتميز به من تفرد وخصوصية ومميزات أخرى ، لو

تأنى وأبتعد عن العجالة في النشر ، رغم أن نشره هذا أفادنا واليكم نص الموضوع .

من ذكريات المحاربين الأكراد
عن الحرب العالمية الأولى

روت لي العجوز البدليسية[1] الأتي عن أخيها شاهين الذي أشترك في الحرب العالمية الأولى ، فقمت بدوري بتسجيل وتدوين أقوالها في يوم ١٩٦٧/٨/١٤ وأضفت عليها من عندي شيئاً لكي تظهر بمظهر مستساغ وفق الشكل الذي ترونه :

«ص»

من بين أربعمئة شخص ، كنا ثمانية وستون شخصاً أبتسم لنا الحظ في البقاء ونجونا من الهلاك والموت ، غير أننا لم نذق طعماً للأكل طوال ثلاثة أيام متتالية فيما بعد ، حتى كادت بطوننا أن تلتصق بظهورنا وتلتقيا بعضها ببعض من شدة الجوع .

أقبل نحونا آمرنا الضابط العثماني «حكمت أفندي» وقال :

– جائز ، أن يقتلنا العدو ، وأن حصدنا الموت ، فأنه يجوز أيضاً ، ولكن الذي لا نسمح له بأن يجوز قطعاً وليس بصحيح أن يحدث ، هو أن ننتحر ونقضي على أنفسنا بأنفسنا ! . . أيها الشباب ، عليكم أن لا تستسلموا لمثل هذا الموت الكريه البشع . . ها أنذا أولاً ، وليشمر بعضكم عن سواعدكم وليتوكلوا على الله . قوموا لنقتحم هذا الوادي الطويل أو لنصل الى ذلك الجبل الأشم ، فالله يرزق وهو الرحمن الرحيم ، إذ ربما نصطاد خنزيراً أو ماعزاً وحشياً أو أي حيوان وحشي أخر يجعله الله تعالى قسمة ونصيباً لنا .

أطلق «حكمت أفندي» مراراً تلك الأقوال ، كررها مثنى وثلاثاً ورباع ، غير أنه بأستثناء أربعة أشخاص فأن أحداً لم يرفع يده دلالة التأييد والموافقة ! .

وهكذا غادرنا صيادونا ، ولم نكن نعتقد بأننا وأياهم سنلتقي يوماً ما بعضنا ببعض ، وشرعت قلوبنا تدق وتخفق وأيدينا فوقها ونحن نتلو «آية الكرسي» مع أنفسنا ونرنو صوب الجبل العالي الشاهق . كنا نبتهل الى الباري تعالى ونتضرع إليه بأن يشمل صيادينا برعايته وبركته ويعيدهم الينا سالمين ومعهم صيد لائق والذي كان يبعث على الغبطة هو أن شمسنا لم تكن قد غابت عن الدنيا بعد ، ولما صارت على بعد قامة رجل من الغروب ، رأينا صيادينا وقد عادوا يجرون وراءهم جثة لأنثى دب في حجم ثور تقريباً ، وسرعان ما التم حولها الأفراد الجياع البائسون ، وكالصبية راحوا أمامها يرقصون ويعلنون عن فرحهم والسنتهم تطلق بصوت عال كلمات الشكر والثناء والأعجاب لصيادينا ، وكان «حكمت أفندي» يعلم بأن ما يقارب النصف من رجالنا لا يأكلون لحم الدببة بل وينفزون منه ، وهب أن هم أكلوه ، فأنهم يتقززون منه أو يتقيؤون وقد يسقطون مرضى جراءه ، لهذا السبب نادى على رجل دين كان معنا وقال له :

– خوجه . . خوجه[2] . . دعني أخدمك بكل جوارحي ، تعال أسرع وحلل علينا لحم دب الخالق ! !

وبعد أن أكره نفسه على التبسم قال «الملا» الذي كان نحيلاً لدرجة واضحة :

– كيف أحلله ؟ ! . . أفندم[3] أهو خروف حتى أحلله ؟ !

ضحك «حكمت أفندي» مقهقهاً وقال :

– إستاذي ، لو كان خروفاً هل كانت لنا آنذاك حاجة الى فتواك ؟ . أي «ملاّ» أنت إذاً ؟ لقد كنا نعتقد بأنك أستاذ ذكي وعالم . . أن الملاّ هو ذلك الملاّ الذي يستعين بالله ويتوكل عليه فيجد مخرجاً لعباده ساعة العسر والشدة ، اليس كذلك أيها الجنود ؟ . . هيا قولوا كلمتكم أنتم أيضاً وأحتكموا بيني وبين الملا !

جاراه بعضهم في الرأي وقالوا :

– نعم القول قولك ولقد أصبت الحقيقة . .

وأعترض عليه بعض أخر :

– فو الله لو متنا من الجوع ، فأن من المحال علينا أن نذوق له طعماً ما لم يفت الـ «خوجه» بذلك ، لأن الموت أطيب الينا

بكثير من تناول لحم هذا الدب القذر .

لما رأى الـ «خوجه» بأن الزعل والتنافر سيدبان في الجنود ، ولما كان بدوره يتألم في اعماقه ويتحرق لمرأى الجنود بلا طعام ، يتضورون من الجوع ، فأنه لم يقدر أن يتحمل الموقف أكثر ، فقام ووقف على قدميه وتبسمل وقال :

– أيها الشباب ، حذاري أن تدعوا قطرة من دمه تسقط ، قبل كل شيء إلي بطاسة أضع فيه حصتي وآتوا لي بكبدهِ لكي أتناوله نيئاً من غير أن يغسل ، ثم أسرعوا الى شي لحمه من غلي قدر كبير منه لكي يشبع منه رجالنا الأبطال ويدخلوا شيئاً من الدفئ والحرارة في بطونهم وأحشائهم ، لا تترددوا في تناول كل ما تصل إليه أيديكم مع أعتقاد جازم بأنه حلال عليكم حتى تشتهيه أنفسكم ، أنه حلال عليكم ، لحم الدب مثلما هو حلال عليكم لحم الخروف ، تبسملوا وكلوا ، فهو حلال عليكم مثلما حلال عليكم حليب أمهاتكم ، كلوا من كل قلبكم وبقناعة لا تتزعزع .

كان من بين الجنود رجل يدعى «أفدوك الجزيري» والملقب أيضاً بـ چپوك ذو الرأس الكبير» نط وقفز من شدة الفرح وهو يصيح بصوت عالٍ :

– أيها الملاّ أنت مقلتا عيني ، بضميري أنت الأمام الـ «دوزده علمي)[٤] .

ثم أنشد يقول :

أنت مفتي الزمان .
هناك أكثر من برهان
ها قد علمت تواً
بأنك تحيط بكل شيء
ملاّ لال عثمان
أنت القبج والكمان
ومنبع الأفراح والأتراح
ملم بالقرآن
أتيت بالفتوى لنا
أنت صديق الفقراء
وقد أخففت حملنا

وكالريح هب عدد من الأفراد ذوي البطون العارية الخالية ، وأخذوا يسلخون جلد الدب عن لحمه بالخناجر والحراب ، ذلك اللحم الطازج السمين الذي لم تكن العين تشبع من مرآه مزقوه وقطعوه أرباً أربا .

وتقدم «حكمت أفندي» بزهو وخيلاء الى الأمام وقال :

– لتعلموا أنتم – مخاطباً الجنود – أي نوع من الأسود والصيادين نحن اليوم ، اليس كذلك ؟ . . ملائي ، كيف ترى ذلك ؟ .

من جديد أكره الملا النحيل نفسه على الضحك وأجاب :

– أنتم ترون كيف أن هذا الدب الأسود خطأ مني قد جعل من «حكمت أفندي» أسكندر[٥] علينا ، أنظروا اليه وكأنه قد أنتزع من القيصر عرشه ! ! . .

وهز «حكمت أفندي» ذو القامة المديده وأبن الأربعين عاماً رأسه ، وقال بثقة وأطمئنان :

– بضميري قد يصح هذا قبل الحرب هذه ، ولكن هذا الصيد اليوم بالنسبة لنا أفضل بكثير من أنتزاع عرش القيصر بل والسلطان أيضاً . .

أقترب «چپوك ذو الرأس الكبير» وقال :

– ليتكم لم تقتلوا هذه الدبة الحسناء ، فلو أنكم جئتم بها حية سالمة لكنت أعقد عليها قراني . . كسرت اليد التي قتلت هذه الحسناء الجبلية[٦] .

أن الرجال الجياع والمهمومين ، وكأنهم لم يجوعوا قط ، أو أنهم نسوا جوعهم اخذوا ينادون بعضهم بعضاً :

– كلوا . . كلوا . . أبدا كلوا . . كلوا من لحم أمرأة چپو . .

بعد ذلك بثلاثة أيام تركنا مواضعنا وأتجهنا نحو مكان أبعد تنفيذاً لأمر عسكري ، وفي منخفض واسع عريض أتخذنا مواضعنا بأنتظار وصول فوج من الجيش لنا ، نلتحق وأياه بفرقتنا التي كانت تستعد لشن هجوم . وحين علم چپوك ذو الرأس الكبير ذلك رفع كلتا يديه الى السماء متضرعاً وبصوت

مرتفع قال :

– الهي . . عونك ، نحن لا نقدر على الحركة ومع هذا يزجوننا في هجوم . .

وصرخ «حكمت أفندي» هذه المرّة ، جاداً وقال له :

– أيها الشقي التعس چيو . . كفاك بأقوالك الجوفاء هذه من تثبيط عزائم الجنود وأثارتهم ضد العسكرية ، وإلاّ فأني أضطر الى أرغامك أن تندم على أقوالك السفيهة هذه . .

وهب «چيوّ» كالأسد الهصور وبصوته العالي قال للضابط العثماني :

– أفندم . . أو لست على حق ؟ ! أجعلوا منا نصف شبعى فقط حينذاك مروا علينا كي نهجم ، نحن بلا خبز وهم يرسلون إلينا الأعتدة وقذائف المدافع . . شكراً لله تعالى ، لقد رأيت أنت بأم عينيك ، كيف مات جوعاً بالأمس أربعة أفراد لنا في خندق يعلو ثغر المضيق ، أنظر الأن إلى السحب فهي الأخرى حزينة مهمومة لحالنا وعلى وشك أن تمطر الدموع . .

كان «حكمت أفندي» يحب چيو ويتودد اليه . لأنه كان يبعث بالغبطة والمسرة في الجنود الذين كانوا يفرحون ويتسلون بمقالبه ونكاته ونوادره التي كانت تساهم بشكل ما على ثباتهم وصمودهم ، لكن المؤسف حقاً أنه كان محباً مخلصاً لدولة آل عثمان ، ينتقل من خندق الى خندق ومن خيمة الى خيمة يسدي النصائح والأرشادات الى الجنود المهمومين ويسري عن الجياع الغاضبين القانطين .

علم «حكمت أفندي» بأن الهجوم المرتقب على وشك الوقوع ، ولما علم ذلك ، فأنه جمع الجنود حوله وقال :

– صحيح ، أننا بدون خبز ودواء . . وصحيح أيضاً أن قلوبنا كسيرة ومشاعرنا جريحة ، فهذه الحرب وضعت الأنسان وجهاً لوجه أمام الموت والخوف من الموت ، صحيح كل هذا . غير أنكم كونوا على يقين بأن عدونا مثلنا وليس بأحسن منا وهو يخاف منا بشدة ، لأننا لقناه دروساً قاسية . . عليه لا ترتبكوا وأحتفظوا برباطة الجأش ، إنَّ الله معكم ، فبعد ثلاثة أو أربعة أو خمسة أيام ، فأن خبزاً حاراً وطعاماً شهياً ودسماً سيكون بأنتظارنا . . آنذاك كلوا وأشربوا هنيئاً مريئاً ، وأبتهلوا الى الباري عز وجل أن يرفع من مقام وشأن ومنزلة سلطاننا . . وأعلموا أيضاً أن هنالك ثمة شعره لا غير بين الشجاع والجبان .

رفع «چيوّ» رأسه وقال :

– إن الجنة التي يتحدث عنها «حكمت أفندي» نعمة من الخالق وهـي غاصة بالبنات والعروسات الروسيات أهرعوا اليها دون تباطؤ أو تلكؤ ، وأن أشد ما أخافه وأخشاه هو أن يكون لكل ذات جديلة صفراء فتى ذو شارب أحمر ، إلهي ، لا تضيع حقنا ، بل أنتزعه ورده الينا من ذلك المغتصب الذي أعرفه . .

سر الـ «خوجه» لقول «چيوّ» هذا كثيراً فقال :

– آمين يارب . . حقق طلب چيوك النصف منافق . . ضحك الجميع وقالوا :

– آمين . . آمين . .

كان الـ «خوجه» يهوى الطرائف والنكات ، ولاسيما قسماً من نكات «چيو» وكان «حكمت أفندي» يختلف في توجيهاته وتصوراته عنهم ، بيد أنه في مثل هذه الحالات كان يتمسك بالمرونة واللين ويفضلها على الشدة والأنضباط ، فكان يخالطهم ويجاريهم وينأى عن التكابر عليهم ، كما ويظهر نفسه بمظهر من يعيش ويتفهم آمانيهم كل ذلك من أجل أن لا يتمردوا عليه أو ينقلبوا على أوامره ويخرجوا عن طاعته لذا فأنه لم يرد على «جبو» بل أضاف على قول الـ «خوجه» الآني حين قال :

– أستاذي . . لقد نطقت بالحق ، ولم تقلل من شأن «جبو» وأهميته . . «جبو» منافق ونصف ، وليس بنصف منافق كما تفضلت وقلت .

وآنصرمت أيام أخرى ، ونحن نحيا الواقع نفسه ، ولم يكن في الأفق ما يدل على تغيير فيه حتى في القابل من الأيام أيضاً أن لم نقل بأنه كان يمضي نحو الأسوأ ، وكانت مظاهر تدهوره تتجلى في القرى النصف منكوبة والنصف مهجورة ، فأية قرية نتجه إليها ، تبدو لنا مشرعة الأبواب ، مفتوحة فارغة وأن عثر

على ثمة حركة في بعض من بيوتها تصدر عن نسوة وأطفال أو رجال مقعدين مسنين فأنهم كانوا مثلنا في حالة يرثى لها . وعلاوة على هذا ، فلقد كنا مضطرين الى أن نأخذ منهم الطعام والمؤن ، في يوم من الأيام أخذنا نطوق بثلاث قرى كبيرة أتينا منها بخمسة عشر رغيفاً من الخبز ، كان نصيب كل ستة أشخاص منا رغيفاً ونصف رغيف .

على حين غرّة ، وعن طريق الصدفة ، وقع قضاءً وقدراً طائر الهدهد الصغير في قبضة «چيڤو» فأخذ يغني من شدة الفرح :

والله لن أطلقك أيها الطائر المجنح
إذ لم يفعل ذلك أحد قبلي ولن أفعله أنا
لن أدع البطن الفارغ هذا يجوع
أيها الهدهد ذو العش المنكوب

يقول الناس كافة :

بأنك المراسل بين بلقيس وسليمان
يا ذا الحظ التعس ، ما العمل هذا المساء
حين تكون الدواء الشافي لروح أفدوك الجزيري
بأسم سلطاني سآكلك
لكي أحارب الروس كالأبطال ببطن شبع

رآه «حكمت أفندي» وقال له :

– ويحك «جبو» ما هذا ، أطلق سريعاً ألا تخاف من الله ؟ ، وأنت تقبض على هذا الطائر المسكين ؟ ، ألا تدري بأنه مراسل النبي سليمان وبلقيس ؟ !

أن ردّ «چيڤو» حاضر وطريف دوماً :

– والله حتى لو كان أبن النبي سليمان ، فلا يسعني إلاّ أن أجعله يستقر في أعماق بطني . . أفندم . ما الحل أذا كان دواء للبطن الفقير بدل الخبز والطعام[٧]

* * *

وأنقضت ثلاثة أيام أخرى لاحت لنا وكأنها سنوات ثلاث ولم يصل الفوج ، وصار وصوله في حكم الغيب ، فقد يأتي أو لا يأتي ، هب أنه أتا فمن يدري بأن أفراده ليسوا أشد جوعاً وتعاسة منا ؟ ! .

كان خلق وأنسانية «حكمت أفندي» يجعلاننا في موقف محرج ، أن جاز القول ، أذا كان يجب العسكر بكل جوارحه وكان المعسكر بالمقابل يطيعونه ولا يخرجون على أوامره وأرشاداته التي كانوا يحنون رؤوسهم أزاءها دلالة التوقير ، كان الجنود يبقون جياعاً من دون تناول طعام لعدد من الأيام ويعد ذلك اليوم ، يوماً سعيداً أذا توفرت «شوربة» خفيفة كالماء (الماء من النهر والبركة)[٨] كانوا يحركون ويديرون الملعقة الضخمة في قاع الصحن الكبير بلا جدوى ومن غير أن يقع فيها شيء ، حتى لونه لم يكن يختلف عن لون عشب يابس يأتون به من العراء ويستعملونه في الطبخ . . ومع هذا فأن الجنود التعساء كانوا يرقصون ويدبكون ، أما المأكولات والأطعمة التي لم يكن لأحد من قبل عهد بها فلقد كانت تلهم «جبوك الجزيري» على الأغاني الحزينة والمفرحة في آن :

هيا إليه إليه إليه
أيها العسكر إليه إليه
هيا إليه إليه إليه
إيها الأكالون أسرعوا إليه

ليجعل الله من سموم
رؤوس الأفاعي دواءً
أيها الشباب نزهة هي الوصول إليه
أيها الأكالون أسرعوا إليه
أنه قيءُ القطط
وقربان لأطالة عمر السلطان
سيندم الذي لا يأكل
أيها الأكالون أسرعوا إليه
هيا إليه إليه إليه
أيها اليتامى إليه إليه
هيا إليه إليه إليه
أيها الجياع أسرعوا اليه

كنا نطوي الأيام الثقال الرهيبة بالأفراح والرقصات ، كنا نشغل أنفسنا بها ونلهيها ونصارع الموت بها ، في حين لم يصل الفوج العسكري أبداً أبداً . بعضهم يقول بأن عدم مجيئه أفضل ، وبعض أخر يقول بأن مجيئه أفضل لعل في مجيئة خير وبارقة أمل .

كالعادة فأن «چيۆ» يطلق العنان للسانه دوماً ، حيث قال :

– ليأتوا بدورهم . كي يرفلوا في هذا اليسر والنعيم ويذوقوا حلاوته..كونوا على يقين ، أنهم الآن يعلقون علينا الأمال في أشباع بطونهم وتحلية أفواههم مثلما نحن الأمال على مجيئهم لكي نشبع بطوننا ونحلي أفواهنا ، . مشو هلم الى جنب أبيك[٩] ! !

وهكذا خيل الينا ، رؤية بخار يتصاعد من طبيخ في حكم المستحيل ، الى أن حدث في مساء ما وأن صاح أحد رصدائنا فوق مكان مرتفع :

– هنالك شبح يبدو من بعيد مقبلاً نحونا . . حقاً ، ثمة شبح يتراءى من بعيد .ولكن أنّا لنا معرفته وتمييزه ونحن عيون ذابلة جائعة وبطون عارية فارغة ؟ !

وتطلع شاويش لنا بالمنظار إليه وقال :

–أبشروا ، رجل يمتطي دابة ، أما أن تكون الدابة هذه حماراً وأما أن تكون بغلاً ، وحتى أذا كانت حماراً فأنه حمار يشبه بغلاً .

قال بعضهم :

– لقد حمل الينا أثنين إلى ثلاثة (أولچا)[١٠] من الدقيق .

وقال بعض آخر :

– أنه معتمد الفوج . .

أما «چيۆ » فقد قال :

– أي كان ، ومهما يكن ، فمن المحال عليه أن يفلت من قبضتنا ويمر من غير أن يدفع ضريبة . .

ولم يمرَّ طويل وقت وإذا بالشبح ينجلي عن رجل يمتطي حماراً كبيراً ، أقبل نحونا وسلم قائلاً :

– السلام عليكم أيها الأخوة الجنود . .

أمسك «جبو» برأس حماره وقال له :

– أهلاً ومرحباً بكما ، فقد حللتما أهلاً ووطئتما سهلاً أنت وحمارك أيها الفارس ، كنا نبحث عنك في السموات ولحسن حظنا نلقاك تقع في قبضتنا من على الأرض ، والله تعالى عندما يكرم فأنه لا يأخذ بالحسب والنسب ، وقد تكون المكرمة من نصيب أبن كلبة ما .

وأخذ منه حماره وتمنى له مواصلة رحلة سعيدة وهو يقول :

– لتصحبك السلامة ، هيا أذهب ولا تتأخر وإلا فأن الليل سيحل . .

وراح الرجل التعس البائس يسترحم ويتوسل قائلاً :

– ناشدتكم الله ، ولأجله تعالى ، أنا أنسان فقير معدم ، بأستثناء هذا الحمار فأني لا أملك أي شيء ولا حتى حيوان أخر في هذه الدنيا . . وأنَّ أخي جندي مثلكم وقد أنقطعت أخباره عنا منذ سنتين تماماً .

لم تجد توسلاته نفعاً ، أذ كان بتوسلاته في واد وكانوا في واد آخر ، وأبعده الجند ، لكن كرَّ عائداً اليهم ، وتكرر المشهد مرات ، فلم يجد أذناً صاغية لتوسلاته ولم يدعو له أحد بأن يأخذ حماره ، وبدا في تشكيكة كمن يدق على حديد بارد . وعدا الـ «خوجه» فأن أي أمرئ لم يرأف بحاله أو تأخذه شفقة به . قال الـ «خوجه» :

– بالله عليكم . . أعطوه حماره . . ها أنذا بين أيديكم أنحروني وكلوني بدلاً عن حماره . .

وصرخ «حكمت أفندي» وقال :

– أرجوك يا أستاذي أن لا تتدخل في الأمر ، وليرأف قلبك بحالنا نحن ، فهو واحد ونحن مئة . . نحن أيضاً لنا قلوب تخفق بين جوانحنا ، ولكن ما العمل أذا لم يكن من بد من الأقدام على هكذا عمل ، فأرضنا يابسة ودولتنا أشد يبساً[11] .

عبس وجه «الملاّ» وتقطب جبينه وبقلب كسير سار نحو خيمته .

نادى «جبو» على صاحب الحمار وقال له :

– أنت السبب في أغضاب الـ «خوجه» علينا ، أن أنصرفت فأنصرف ، ففي أنصرافك منتهى الحكمة ، وأن لم تنصرف فلا مناص لي من أن أتقدم اليك لاشوي لحمك وأجعل منه كباباً ، عليه أنصرف ، والأفضل لك أن لا تعتمد التأخير وأعمل بالنصحية الخيرة لجبوك الجزيري . .

لما سمع الرجل ذلك ، هرول مذعوراً وتوارى عن الأنظار .

بعد ذلك قام الرجال الجياع النحيلي الأجساد وطرحوا الحمار الكبير فوق الأرض وذبحوه ، وبسرعة قطعوا لحمه وجعلوا منه ثلاث عشر حصة ، لكل سبعة الى ثمانية رجال حصة واحدة ، وأعطوا رأسه الى أربعة رجال ، أما قضيبه وخصيتاه وقطعة أخرى صغيرة من لحمه فلقد أعطوه الى أربعة رجال كنت من بينهم . غير أننا لم نرض بحصتنا ورفعنا شكوى بذلك الى «حكمت أفندي» .

– أفندم . .

قلنا له ، ثم أستطردنا :

– إنَّ الله لا يرضى بهذه القسمة : أن يكون هذا الرأس الكبير لأربعة أشخاص ، وأن يكون هذا القضيب والخصيتان وهذه القطعة الصغيرة من اللحم لنا نحن الأربعة ، حسناً بضميرك ، أهذه عدالة ؟ قل لوجه الله فقط ، أن لسانه فقط أحسن بكثير من قضيبنا هذا ، هل من ضمير لو اعطيتمونا عدداً من الأشبار من أمعائه ؟ .

غضب «حكمت أفندي» وصاح قائلاً :

– الضمير . . أي ضمير ! ! «أوغلم»[12] لو كان في الدنيا ضمير أو بقي فيها شيء منه ، لما أندلعت هذه الحرب ولما حلت بنا هذه المصائب ولما كنا نحن أيضاً نرتكب هذه المظالم . متى كان هذا ضميراً أو يمت بصلة الى الضمير : لقد أخذنا من الفقير المسكين حماره عنوة وأكراهاً ووضعناه في بطوننا ؟ ! .

قاطع أحدهم وكان يدعى «مام خدر القفقاسي» قول «حكمت أفندي» وقال :

– إلهي . . في المدن يتناول الناس كافة خبز الحنطة ولحم الطليان مع الكيك ومعجنات شهية[١٣] . ونحن هنا في هذا العراء الموحش المجهول نختلف ونتنازع حول قطعة من لحم الحمير والدببة ، أوليس الموت بأفضل لنا من هذه الحالة ؟

أدرك «چيڤو» بأن «حكمت أفندي» ينزعج من مثل هذه الأقوال ، لذا بادر وقال :

– هيه . . عزيزي «مام خدر» الذكي ، أن الذين يتناولون الأطعمة اللذيذة الشهية ليسوا مثلي ومثلك ، فأمثالنا أينما كانوا ووجدوا يتحسرون على لحم الفئران والثعابين بعد أن أتوا على الكلاب والقطط ، فلا تقل «الناس كافة» بل قل «زمرة» . فالناس ناس أما «الزمرة» فهي عدد من الحقراء التافهين الطفيليين .

أغتبط «حكمت أفندي» للكلمات التي قالها «چيڤو» ووجدها فرصة سانحة فصاح :

– أغلقوا هذا الموضوع ، ولا تتطرقوا إليه مرة أخرى ، وأعلموا أن قول الحق صعب تكتنفه المخاطر . .

قال ذلك وأخذ يغدو ويروح ، ثم تشاوروا فيما بينهم و . . والقوا الينا بالذيل أيضاً والذي كان نصف مشوي – كلوا . . كلوا أبداً . . آنذاك أحسسنا بلون من الأرتياح . ثقوا بأننا الى ذلك اليوم لم يسبق لنا وأن تناولنا طعاماً شهياً مثل ذلك الطعام ، والى هذه اللحظات فأني عندما أتذكر ذلك أكاد أحس بلذة مذاق طعمه في فمي .

أهاب «چيڤو» بنا الى الرقص والغناء وعلى لحن أغنية «لي لي كني»[١٤] أخذنا ننط ونقفز وبذلك ، يومذاك أدركنا للتو ، بأننا نحن الأكراد أكثر ثباتاً ومرحاً من سكان المعمورة كافة ، لأن الأكراد وحدهم كانوا يرقصون ويغنون :

كلو . . كلوا . . لي . . لي . . لي
كباب شهي . . واي . . واي
الذي لا يأكل لي . . لي . . لي
فهو أبن الكلب . . واي . . واي

كان معنا شاويش هفيركي[١٥] من قبيلة «توري»[١٦] أقبل الينا وقال :

– صحيح هو المثل الذي يقول «أن دبر السلوقي يطلب الطمبور»[١٧] . . في الحقيقة ، أنا مثلكم أهوى ذلك ، ولكن ما العمل ؟ فليدمر الله دار مشعل هذه الحرب القذرة التي جعلتني مثل أمريئ بخيل ، ويقال بأن الأنسان البخيل لا يتغوط سريعاً لكي لا يجوع سريعاً . وإلاّ فأنّ علينا مشاركتكم . .

تصنع «حكمت أفندي» السرور وهو يقول : «

– حقاً ، أن الآلام والعذابات قائمة في كل مكان ، وأننا نفتقد الأطباء والأدوية أيضاً ، ولكن ، ما شاء الله ، فبالرغم من ذلك ، فأن رجالنا جميعاً شجعان نشطاء ، حتى أنه يخيل للمرء بأن وجبات طعامهم الثلاث يومياً تتألف من اللحم ورز «قرج داغ»[١٨]

من جديد لم يفلح «چيڤو» في السيطرة على لسانه وقال :

– أفندم ، أن الكلمات الجوفاء العارية لا تشبع من جوعنا ولا

تدخل بالمسرة الى أفئدتنا ، أو لم تسمع ، بأن شاويشنا لا يتغوط حتى لا يجوع سريعاً ؟ من الأفضل لنا أن نمضي للأعتذار من الملاّ وترضيته وتهدئة خاطره ، ترى هل نسيت أمره ؟ .

أحتار «حكمت أفندي» في كيفية العمل والتصرف ، لذا قال :

– على ذمة حماري ، أنت الأحسن منا جميعاً .

المضيّ ، ولم المضي ؟ . . وليروا ماذا ؟ . . رأوا الملاّ الطيب المسكين وقد أنتقل الى جوار ربه ، وبالقرب منه قطعة من لحم الحمار من غير أن تمس أو تذاق . .

قبل «حكمت أفندي» جبين «الملاّ» وقال :

– أنت قرأت سورة «يس» وتلوت الكثير من الآيات القرآنية الكريمة على الموتى والقتلى ، وحين تموت أنت فلا من أحد يتلو عليك آية ، أنت الذي كنت تقول دوماً :

ليتني عدت مرة أخرى سالماً الى زوجتي وأطفالي وأعمل بحرية كما الماضي في أرضي وبستاني ، ها أنت مت ورحلت ولم تر أمنيتك تتحقق . .

دوى نبأ موت الـ «خوجه» بصوت «چيڤو» في كهف واقع بثغر المضيق :

– هي . . هي . . ي ي ي . . مات الملاّ أيضاً والبقية في حياة السلطان . . أقرأوا الفاتحة . .

بأستثناء حارس في أعلى مدخل المضيق ، فأن أحداً لم يبق في موضعه ، فقد نهض كل من مكانه قاصداً خيمة الـ «خوج أفندي» . وأنهمك نفر في تلاوة «الفاتحة» وأشتبك نفر آخر في نزاع حول قطعة اللحم المتبقية ، خطف أحد الطفيليين قطعة اللحم وفرّ ، وأسرع خلفه رفاقه ، وصرخ «چيڤو» من تحت الأرجل والأقدام :

– أيها الشباب الحقوا به . . أمسكوه ولا تدعوه يفلت . . أستردوها منه ، ولا تمسوها ، لأني عازم على جعلها قرباناً للمرحوم . .

الهوامش

١ – نسبة الى مدينة بدليس الكردية والواقعة في كردستان تركيا .
٢ – خوجه – الملا .
٣ – أفندم . . كلمة تركية وتعني التعظيم والأحترام .
٤ – الـ «دوزده علمى» أي الملا المجاز .
٥ – أسكندر ، أي الأسكندر المقدوني .
٦ – هنالك حكايات كثيرة عند الأكراد تروى عن وقوع أنثى الدب في غرام الرجال بالمناطق الجبلية ، وهنالك قصص وحكايات عديدة عن خطف أنثى الدب لشاب جبلي . . الخ .
٧ – مثل كردي .
٨ – مثل كردي ونصه : «ئاف/ژ/رو/ ، بەرەكەت/ژ/خودى» جاء في شرح الكاتب للمثل : الطعام البسيط سواء أكان بسبب من الفقر أو البخل .
٩ – مثل كردي ونصه : «مشو/وەرە/چەم/بابى/خوە» جاء في شرح الكاتب له بأنه : قصة كردية قصيرة حول أولئك الذين يطلقون كلاماً ملؤها التفاؤل من غير أن تكون لهم حجة أو دليل فيشبهون بذلك أولئك الذين يشيدون قصوراً في الهواء . .
١٠ – مكيال تركي يصنع من الخشب لكيل الحنطة والشعير . . الخ يقول الكاتب بأنه كان يستعمل الى وقت متأخر .
١١ – يعكس القول فقراً مدقعاً وعوزاً مخيفاً .
١٢ – كلمة تركية بمعنى : بني . .
١٣ – في القول فضح وتعرية للطبقة المتنفذة التي كانت ترفل في النعيم على حساب فقر وجوع الجماهير الشعبية في الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى .
١٤ – من الأغاني الشعبية الكردية الشهيرة ، قبل سنوات تم تصويرها من قبل تلفزيون التأميم وقدمها الفنانون الشباب في راوندوز . .
١٥ – منطقة واسعة في كردستان تركيا غنية بأنواع المحاصيل الزراعية والحيوانية وتقطنها قبائل كردية عديدة .
١٦ – قبيلة تقطن في منطقة هفيركا .
١٧ – مثل كردي ونصه : «قونا/تازى/تەمبورى/د/خوازى» .
١٨ – قرج داغ : يقول الكاتب عنه بأنه جبل شهير في منطقة آمد بكردستان تركيا ، وقد ورد أسمه في الكثير من الأغاني والحكايات والحوادث وأن رزه للذيذ الطعم شهير مثل رز عقره .